إنسان نيتشة المثالي فكان يحتقر الاخرين كافة وينظر إليهم من عـلّ، علـى إنّهـم مرؤوسوه وفي خدمته[1]. ونظراً لعمق وأصالة كونفوشيوس فقد تحولت تعاليمه إلى مبادئ التزم بها تلاميذه الذين كونوا مع معلمهم مدرسة فكرية ما زالـت بـصماتها واضحة في السلوك والفكر والتعامل، ليس في الصين وحدها، بل في جنوب شرق آسيا بأسرها.

الفلسفة الهندوكية

تختلف جغرافيا الهند عن جغرافيا الصين. إذ في الوقت الذي تمثل فيه الصين وحدة جغرافية معزولة عن العالم الخارجي، تخضع لظروف مناخية قريبة التماثـل جعلت منها وحدة إنتاجية، فإنّ شبه القارة الهندية تحدها شمالا سلسلة عظيمة مـن الجبال تتخللها جبال في الوسط تقطعها الوديان وتحيط بها الشواطئ، مع اخـتلاف المناخ الذي يتراوح بين القاري والاستوائي، وأنماط محيطية[2]. ربما شكل الوضع الجغرافي والظروف المناخية في الهند عاملاً مارس دوراً مؤثراً في الانقطاعـات الحضارية (Cultural Discontinuities) الرئيسة التي كانت ناتج التطور الهندي الذي يعود إلى مراحل قبل التاريخ. لقد تعرضت شبه القارة الهنديـة للعديـد مـن الغزوات من خلال الممرات الجبلية في الشمال الغربي وربما أيضاً فـي الـشمال الشرقي. مثل تلك الغزوات أخذت بالتوغل التدريجي ثم ما لبثت أن انعزلت بفعـل الظروف الجغرافية الصعبة. ولقد باعدت مثل هذه العزلـة المكانيـة بـين سـكان المناطق المختلفة في شبه القارة الهندية حتى فترات متأخرة، عندما بدأ القـاطنون في هذه البقاع المنعزلة الانفتاح على غيرهم. لقد شهدت منطقة شمال غربي الهند، ومنذ الالف الثالث قبل الميلاد، تكوّن مجتمعات محلية قوامها النمط الفلاحي القرويّ (Peasant- Village Type). أما في إقليم السند والبنجاب فقد نشأت حوالي سـنة 2500 قبل الميلاد، مدن ذات قاعدة فلاحية- قروية. وحضارياً؛ فإنّ نشأة مثل هذه المدن تأثرت بما تحقق من تطور في المدن وعمرانها في وادي الرافدين في تلـك الفترة التاريخية الموغلة في القدم، رغم ما تمّ في الهند نفسها مـن تـشكل لحيـا

---

(1) أعلام الناس، مصدر سابق، ص 60

(2) Martindale, D., Social Life & Cultural Change, p. 185

حضرية خاصة بها. وهناك خاصية حضارية تختلف فيها الهند عن الصين. ففي الوقت الذي استطاع فيه المجتمع الصيني استيعاب الموجات الغازية التي تعرض لها وتذويبها ضمن بوتقته التاريخية – الحضارية – الاجتماعية بقي غزاة الهند إما منعزلين في مناطق جغرافية متباعدة أو موجودين على سطح المجتمع الهندي في شبه عزلة حضارية، مما أحدث العديد من الانقطاعات الحضارية التي خلقت شروخاً في جسم الحضارة الهندية حالت دون الاستمرارية والمواصلة وتجديد الحيوية الحضارية.

لقد شهدت الهند في القرن السادس قبل الميلاد، كما شهدت جارتها الصين، فترة توحدت فيها الاقاليم المختلفة. كما ظهر العديد من المدن. وبذلك تطورت صيغ للحكم الاتحادي استطاعت أن تتجاوز التجزئة. الا إنّ هذه الصيغ الاتحادية في الحكم والإدارة تبلورت في الصين. فقد تحول الحكم إلى ممارسة امبراطورية استطاعت أن تحتفظ بالكيان الصيني على عكس الوضع في الهند. وكما يؤكد ماكس فيبر فإنّ تحطم الطبقة المحاربة الهندية الكشاتريين (Kchatriyas) حال دون بروز فئة حاكمة قوية تستطيع أن تجمع شتات شبه القارة الهندية في ظل امبراطورية قوية.

ولتعرّف الفلسفة في الهند القديمة يمكن تتبع المراحل التي مر بها الفكر الهندي غيبياً في عصر الفيداما بين عامي (2000- 1000ق.م)، وبطولياً في عصر المهابراتا والرمايانا ما بين (1000- 500 ق.م). كما وجد في هذه الفترة من (800- 500 ق.م) أول كتاب في الفلسفة الهندية القديمة هو أوبانيشاد. أما ظهور البوذية والجاينية فإنّها مثلت الحلقة الثالثة من الحلقات التي مر بها الفكر الهندي القديم. إذ في الوقت الذي أسس فيه مهافيرا (Mahafira) (550- 477 ق.م) الجاينية فإنّ غوتاما سيد هاتا، الذي دعي بوذا (563- 483 ق.م)، كان المؤسس للاعتقاد البوذي. والواقع إنّ الفيدا هي أقدم ما وصل إلينا عن الفكر الهندي القديم. فما هي هذه الفيدا؟ إنّ كلمة فيدا معناها معرفة، وإذن فتفسير الفيدا معناه الحرفي كتاب المعرفة. والفيدات يطلقها الهندوس على تراثهم المقدس الذي ورثوه عن أولى

مراحل تاريخهم. إنّها تدل على أدب أكثر مما تتخذ لنفسها صورة كتاب. ولم يبق من الفيدات الكثيرة التي شهدها الماضي الا أربعة أسفار:

1. سفر رج، أو معرفة ترانيم الثناء؛
2. سفر ساما، أو معرفة الانغام؛
3. سفر ياجورا، أو معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين؛
4. سفر أتارفا، أو معرفة الرقي السحرية. وينقسم كل واحدة من هذه الفيدات الاربعة إلى أربعة أقسام:

1. مانترا أو الترانم؛
2. براهمانا أو قواعد الطقوس والدعاء والرقي لهداية الكهنة في مهمتهم؛ 3. أرانياكا أو نصوص الغابة وهي خاصة بالقديسين الرهبان؛
4. يوبانشاد أو المحاورات السرية وهي تقصد الفلاسفة. وليس بين أسفار الفيدا الا سفر واحد ينتمي إلى الادب أكثر مما ينتمي إلى الدين أو الفلسفة أو السحر. فسفر رج ضرب من الدواوين الدينية يتألف من (1028) ترنيمة أو أنشودة من أناشيد الثناء يتوجه بها الناس إلى مختلف معبودات الاريين الهنود – الشمس والقمر والنجوم والريح والمطر والنار والفجر والارض وغيرها. ومعظم الترانيم دعوات واقعية في سبيل قطعان الماشية والمحصول وطول العمر، وقليل منها يرتفع إلى مستوى الادب وبينها عدد ضئيل يبلغ درجة الإنشاد في رشاقتها وجمالها. بعضها شعر طبيعي ساذج كإنّه الدهشة الفطرية التي يبديها الطفل إزاء ما يرى. فترنيمة منها تتعجب في كيف يخرج اللبن الابيض من أبقار حمراء وترنيمة أخرى تدهش لماذا لا تسقط الشمس على الارض سقوطاً عمودياً حينما تبدأ بالانحناء وترنيمة ثالثة تتساءل كيف أمكن لمياه الانهار كلها أن تثب فوارة إلى المحيط فلا تملؤه ومنها ترنيمة رثاء[1]. أما اليوبانشاد (Upanishads) فإنّها إحدى قمم الفكر الهندي القديم وهي تتجه إلى تحديد الضوابط للعلاقات بين الإنسان والإنسان. أي إنّها أخلاقية الطابع (والكلمة مؤلفة من مقطعين يوبا ومعناها بالقرب ونشاد ومعناها يجلس). ومن الجلوس بالقرب من المعلم انتقل معنى الكلمة حتى أصبح يطلق على

---

[1] ديورانت، الهند، ج. 3، ص 38- 39

المذهب الغامض الملغز الذي يسره المعلم إلى خيرة تلاميذه وأحبهم إليه. وفي الاسفار مائة وثماني محاورات جرت بين المعلم وتلاميذه[1]. وكانت هذه المحاورات وسائل لمعاونة التلاميذ والناس العاديين لإعادة اكتشاف ذواتهم، ليس عن طريق الجسم والعقل ولا عن طريق الذات الفردية، ولكن عن طريق النظرة التأملية في داخل هذه الذات. هذه الطريقة للمعرفة هي أقرب للمناخ الفكري في الهند، حيث الزهد والتأمل للإرتفاع فوق صعوبات الحياة في شبه القارة التي زاد من قسوتها معاناة المجتمع الهندي جراء الغزوات، إلى الحد الذي تحول فيه سكان الهند القدماء إلى شعب هامشي سمي (بالدرافيديين) الذين يتركزون في الجنوب وفي هضبة الدكن بالذات. وبذلك تشكل المجتمع الهندي من الطوائف الطبقية الآتية:

1. طبقة البراهما (Brahmanns) دينية الوظيفة؛
2. طبقة الكشاتريين (Kchatriyas) عسكرية الطابع؛
3. طبقة الفيسائيين (Vaicyas) ووظيفتهم تجارية؛
4. طبقة الشودرا (Soudras) وهم الصناع؛
5. الباريا وهم المنبوذون الذين انضم إليهم العبيد والارقاء وأسرى الحرب وبعض القبائل التي احتفظت بدياناتها التقليدية. وبذلك اتسعت هذه الفئة وتحولت إلى طبقة تسمى اليوم طبقة المنبوذين. وقد انعكست هذه الصعوبات الطبيعية والاجتماعية على الفكر الهندي خلال مراحله الفكرية الممثلة بالفيدا واليوبانشاد ثم المرحلة البوذية والجاينية التي يمكن تحديد معالمها بالوصايا التي قدمها بوذا عندما طلب منه تلاميذه تحديد معنى الحياة السليمة، والتي سميت بالقواعد الخلقية الخمس وهي:

1. لا يقتلنّ أحد كائناً حياً؛
2. لا يأخذنّ أحد مالم يعطه؛
3. لا يقولنّ أحد كذباً؛
4. لا يشربنّ أحد مسكراً؛

---

[1] المصدر نفسه، ج. 3، ص 43

5. لا يقيمنّ أحد على دنس[1].

وتبلغ مثل هذه التقاليد ذروتها في ما يسمى الرفانا، فما هي الرفانا؟ هل هي التصعيد العالي للزهد وصولاً إلى فناء الذات، أم إنّها وسيلة – رغم هروبيتها – تحاول أن تجد للهندي طريقاً وسط ما يتعرض له من طبيعته القاسية ومجتمعه الطبقي الطائفي؟ وفي الواقع فإنّ الرفانا تجمع بين المقومات السبعة الآتية وهي "السيطرة على النفس، والحديث عن الحقيقة، والنشاط، والهدوء، والغبطة، والتركيز، وعلو النفس". ويقول بوذا: « إنّنا في نهاية الامر ندرك ما في الفردية النفسية والخلقية من سخف. إنّ نفوسنا المضطربة ليست في حقيقة الامر كائنات وقوى مستقلة عن بعضها البعض، لكنّها موجات عابرة على مجرى الحياة الدافق. إنّها عقد صغيرة تتكون وتتكشف في شبكة القدر حيث تنشرها الريح. فإذا ما نظرنا إلى أنفسنا نظرتنا إلى أجزاء من كل، وإذا أصلحنا أنفسنا وشهواتنا إصلاحاً يقتضيه الكل، عندئذ لا تعود أشخاصاً بما ينتابها من خيبة أمل أو هزيمة، وما يعتورها من مختلف الالام ومن موت لا مهرب منه ولا مفر. ولا تعود هذه الاشخاص تحزننا حزناً مريراً كما كانت تفعل من قبل. عندئذ تفنى هذه الاشخاص في خضم اللانهاية. إنّنا إذا تعلمنا أن نستبدل بحبنا لأنفسنا حباً للناس جميعاً وللأحياء جميعاً عندئذ ننعم آخر الامر بما ننشد من هدوء» [2].

المجتمع الهندي والفكر الهندي

إنّ تعاليم جواتاما (بوذا) لا تختلف عن غيرها من التعاليم البراهمية في حثّها على الزهد وترك ملذات الحياة والاقتناع بالقليل والقبول بعذاب الارض واعتبار الحياة الدنيا أقصر من أن يتم فيها انجاز غاية [illegible] طبيعة الهند القاسية ومناخها، والوقوف بوجه غزاتها الذين تعاقبوا عليها يعبّون من خيراتها. لذا فإنّ تاريخ الهند يمكن أن يفهم، ليس على أساس الاحداث، وإنّما بإحصاء الغزاة الذين كانوا يسلبون كل شيء. وبذلك تعود الحياة كما بدأت فقيرة قاسية يلتصق فيها الفلاح الهندي بأرضه خائفاً من مصيره لا يفكر الا في يومه. فالفقر والخوف والغزو من

---

[1] ديورانت، ج. 3، ص 77

[2] ديورانت، ج. 3، ص 85

المترادفات التي حفرت وبعمق بصماتها على الحياة والمجتمع والتاريخ والفكر في الهند، فتحول الفقير الهندي إلى شخصية، رغم إنّها ترمز إلى الفاقة والحرمان، الا إنّها في ذات الوقت تنطق بالحكمة وتمتلك قدراً من الاعتبار. ولكنّ هذا الفقير الذي مثّل الكتلة الحياتية الطاغية من البشر التي قنعت وتلذذت في فقرها في طول الهند وعرضها، فسحت المجال واسعاً لفئة مفرطة في الغنى تعيش حياةً باذخة وسط بحر من الجوع والحرمان والمرض إلى الحد الذي لم يستطع فيه الرحالة الأوربيين، الذين زاروا الهند في القرن الماضي، من أن يقارنوا بين قصور الاغنياء الهنود وحياة ترفهم وبين ما كان عليه سواه، المجتمع الاوربي. هذا التفاوت الصارخ كرس أهمية وامتياز طائفة/طبقة البراهاما والتي ثبتت فيما يسمى بتشريع (مانو) الذي لم يكن أكثر من نصوص عرفية حاولت صياغة متعارفات لتنظيم جوانب التعامل في حياة أفراد المجتمع الهندي والتي يرجع تاريخها إلى سنة 1200 قبل الميلاد. فتشريع مانو يحذر الملك من فرض ضريبة على برهمي، حتى إذا نضبت كل موارد المال الاخرى، لإنّ البرهمي إذا ثار غضبه يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعاً بتلاوة لعنات ونصوص سحرية. ولم يكن من عادة الهنود أن يوصوا بشيء قبل موتهم فيما يختص بميراثهم، لإنّ من تقاليدهم إنّ أملاك الاسرة لابدّ من أن تظل ملكاً مشاعاً للأسرة كلها وهي تنتقل انتقالا آلياً من موتى الذكور في الاسرة إلى أحيائهم. لكنّ الاوربيين بما يسودهم من نزعة نحو الفردية، لم يكادوا يدخلون في الهند نظام الوصايا حتى رحب به البراهما ترحيباً عظيماً ليتخذوا منه حيناً بعد حين وسيلة للاستيلاء على الاراضي لأغراض كهنوتية[1]. هذه المكانة العالية للبراهما وكما يرى ديورانت في موسوعته عن قصة الحضارة وفي الكتاب الخاص بالهند وجيرانها، حفظت للهند وحدتها الحضارية وساهمت في نقل التراث الفكري الذي تراكم عبر حقب التاريخ الطويلة من جيل إلى جيل، رغم ما شاب سلوك البراهما، الذين مثلوا الجسم الكهنوتي، من استغلال وابتزاز وتوظيف للتعاليم الروحية الموروثة في توسيع ثرواتهم والاسراف في ملذاتهم وشهواتهم، فإنّ هذه الطائفة/الطبقة استطاعت أن تملأ الفراغ الذي حصل بفعل غياب حكومة قوية عادلة

---

[1] ديورانت، ج. 3، ص 165